

المحاضرة (٤)

محمد عبده

١٨٤٩-١٩٠٥

ولد محمد عبده في قرية على ضفاف الدلتا المصرية، في عائلة تملك بعض الثراء والمكانة الاجتماعية، لذلك استطاع ان يتعلم القراءة والكتابة على أيدي معلمين أحضروا لتعليمه في المنزل، وحفظ على أيديهم القرآن الكريم وتعلم ركوب الخيل والفروسية.

وعندما بلغ الثالثة عشر من العمر سافر إلى طنطا للدراسة في الجامع الأحمدي، أحد مراكز الثقافة الدينية المهمة في مصر آنذاك، لكنه لم يفد من ذلك شيئاً بسبب عقم التعليم، رجع إلى قريته وتزوج، غير أن أباه طلب إليه أن يستأنف تعليمه، فسافر بدلاً من طنطا إلى أخوال أبيه حيث وجدّ بينهم شيخاً متصوفاً هو الشيخ درويش، ذا أفق فكري واسع وفهم صحيح للدين، فأخذ يسمع إليه ويتلقى منه التوجيه والإرشاد حتى جعله أستاذه الأول.

لقد أثر فيه هذا الشيخ تأثيراً كبيراً وجعل منه شخصية جديدة ترى وتفهم الحياة بمنظار جديد: حتى صار يحس إحساساً عميقاً كأن عليه رسالة الحياة: ان يهدي الناس إلى الطريق المستقيم. قال محمد عبده في سيرته عن خاله هذا، لم أجد غماماً يرشدني إلى ما وجهت نفسي إليه إلا ذاك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد.. وهو مفتاح سعادتني إن كانت لي سعادة في هذه الدنيا. وهو الذي ردّ لي ما كان غاب من غريزتي وكشف لي ما كان خفيّ عني ممّا أودع في فطرتي...

عاد محمد عبده إلى طنطا وبعد إتمام دروسه فيها التحق بالأزهر حيث أعجب بشيخ كان يُدرس الفلسفة والمنطق هو الشيخ حسن الطويل.

في عام ١٨٧١ زار مصر جمال الدين الأفغاني داعياً إلى نهضة الإسلام ومحاربة الاستعمار، فالتف حوله محمد واعجب إعجاباً شديداً بأفكاره، وأخذ تحت تأثيره ينشر مقالات في جريدة (الأهرام) وفي عام ١٨٧٧ نال الشهادة العالمية من الأزهر واخذ يُدرس في الأزهر و(دار العلوم) و(مدرسة الألسن)، وأهتم في تدريسه بـ مقدمة (أبن خلدون) و(تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه وكتاب غزو تاريخ تمدن الممالك الأوربية.

وحين أخرج الأفغاني من مصر على أثر دعواته الخطيرة وآرائه الجريئة، أقيل محمد عبده من وظيفته بسبب اتفاقه معه في الرأي، لكن بعد حين، يُسند إليه تحرير (الوقائع المصرية) بواسطة أحد المسؤولين فينهض بها مع طائفة من تلاميذه، إذ لم يقف بها عند تحرير الوقائع والأخبار الحكومية بل جعلها صحيفة ثقافية وإصلاحية، تمارس النقد وتدعو إلى الحرية الأعمال الخيرية وتطهير الإسلام من البدع والخرافات وقيام حكومة عادلة.

في هذه الأثناء تقوم ثورة أحمد عرابي فيعاضها محمد عبده في البداية، لأنه كان يكره أحمد عرابي ولا يراه مؤهلاً ليكون زعيم أمة، وفي الوقت ذاته كان يعتقد أن الأمة لا تزال غير قادرة على أن تحكم نفسها، لكنه حين تدخل الأجانب لإخماد الثورة، انضم إليها، وراح يأخذ المواثيق ويحرر بيانات الثورة للشعب والدول، ويحض قومه للتجنيد ويحمسهم للقتال، غير أن الثورة تخفق، فيُسجن محمد عبده مئة يوم ثم يُنفي إلى بيروت.

وفي بيروت يلتف حوله العلماء والأدباء، ويدرس في المدرسة السلطانية، إلا أن مقامه لا يطول فيها، إذ يطلب إليه أستاذه جمال الدين الأفغاني أن يلحق به في باريس، لإصدار مجلة (العروة الوثقى) فيلبي الدعوة ويحرر في المجلة مقالات

تفويض ثورة وغضباً على أعداء مصر والعالم الإسلامي، ويرجع ثانية إلى بيروت بعد إغلاق المجلة ويكتب فيها بعض الكتب مثل (رسالة التوحيد)، و(شرح نهج البلاغة) و(مقامات بديع الزمان)، ويُفسر القرآن تفسيراً جديداً من غير أن يتقيد بتفسير خاص.

يظل في بيروت ست سنوات، ثم يعود إلى مصر، بعد أن يُعفى عنه بشفاعة صديقه (رياض باشا) ولا يستطيع العودة إلى التدريس، ولنه يُعين قاضياً، ثم مستشاراً في محكمة الاستئناف، ويتعلم الفرنسية لفهم القوانين الأجنبية، ويُترجم منها بعض الكتب، كما يسعى إلى العمل للنهوض بالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية، وهو ما يجعله يُسالم المسؤولين، ويهادن الإنكليز، ويستعين بهم لتحقيق ما يريد، مما يجعل الأفغاني يحقن عليه، ويراه متنكراً لمبادئه، لكنه يظل بسياسة التقرب من الإنكليز والاستعانة بهم حتى آخر حياته، ويُعين مفتياً للديار المصرية في عام ١٨٩٩، ويظل في هذه الوظيفة حتى وفاته في ١٩٠٥.

آراؤه:

يعد محمد عبد أكبر مصلح ديني عرفته مصر والعالم العربي، فقد سعى إلى نهضة الإسلام والمسلمين وتخليص الدين من الأوهام والخرافات وبحث فيه بحثاً حراً مثل مبحث المعتزلة في القديم، فباب الاجتهاد لم يُعلق ولا ضير أبداً في أن تبحث فيه وفي أصوله، في ضوء الفكر الحديث، لقد أثبت في مقالاته وأبحاثه أن الإسلام دين عالمي وحي، وأنه لا يتعارض مع المدنية الحديثة، وردّ ردوداً قوية على بعض المفكرين من الأوروبيين الذين هاجموا الإسلام واتهموه بأنه لا يتلاءم والعصر الحديث.

كان هدف محمد عبده في جميع أعماله وكتاباتاته سدّ الثغرة القائمة في المجتمع الإسلامي، بُغية تقوية جذوره الخلقية، ولبلوغ هذا الهدف رسم طريقاً واحدة هي عدم

الرجوع إلى الماضي وإيقاف مجرى التطور الذي بدأ في مصر منذ حكم محمد علي، بل الاعتراف بالحاجة إلى التغيير، وربط هذا التغيير بمبادئ الإسلام، وذلك بإثبات أن هذا التغيير ليس ممّا يجيزه الإسلام حسب، بل إنما هو من مستلزماته الضرورية إذا ما فهم على حقيقته.

أثبت محمد عبد أن الإسلام ينطوي على الأسس العقلية والخلقية التي أراد الفلاسفة الأوروبيون استنباطها من العلوم الحديثة، وهو ما يجعل الإسلام يصبح أساساً للحياة الحديثة، وهو لم يقصد بتأكيد أن الإسلام صالح لأن يكون الأساس الخلقي لمجتمع حديث وتقدمي، إلى القول بأن الإسلام لم يُحبذ كلّ ما كان يعمل باسم التقدم، وبأن غاية العلماء الجدد هي مجرد إضفاء طابع شرعي على الأمر الواقع، بل قصد إلى خلاف ذلك، فالإسلام - كما فهمه - مبدأ رده من شأنه أن يُمكن المسلمين من التمييز بين الصالح والطالح من مختلف وجوه التغيير الحاصل، لذلك كانت المهمة التي اضطلع بها ذات شقين: أولاً إعادة ماهية الإسلام الحقيقي وثانياً النظر في مقتضياته بالنسبة إلى المجتمع الحديث. يقول محمد عبده في سيرته محدداً هذين الهدفين "الأول تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وإنه على عذا الوجه يُعد صديقاً للعلم باعتماداً على البحث في أسرار الكون.. أمّا الأمر الثاني فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير..."^(١).

(١) الفكر العربي في عصر النهضة، ص ١٧٢-١٧٥.